الإسلام

في مواجهة التحدّيات المعاصرة

أبو الأعلى المودودي

تعريب

خليل أحمد الحامدي

دار القلم
الكويت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة
١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م

دار القلم - الكويت - شارع السور - عمارة السور - قرب وزارة الخارجية
هاتف (٤٢٥١٦٠) ص.ب (٢٠١٤٦) برقياً - توزيعكو

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

من الواقع الملموس أن حركة إثارة الشبهات حول الإسلام ضاعفت نشاطها واستنفرت رجالها اليوم بصفة خاصة . وأصبحنا نرى المكتبات العالمية تستقبل كل يوم جديد كتاباً جديداً مشحوناً بالهجمات المستهجنة والاتهامات الفارغة للإسلام ونبيّه وأحكامه ورجاله تحت ستار الحوار العلمي والبحث الحر والنقد المحايد ، وما الى ذلك من الشعارات التي يتخذهـا أعداء الإسلام تغطية لما يقومون به من محاولات في تثبيت الشبهات في أذهان الشباب المسلمين، لصرفهم عن دينهم وبلبلة أفكارهم . وأغرب من ذلك أن حركة الدس وإثارة الشبهات كسبت جماعة من (العلمـاء المسلمين) يدعمون أفكارها ويسندون ظهرها ويستجيبون لمزاعمهـا . الأمر الذي أوقع الشباب المسلمين في حيرة وتخبط ، وهم إذا أدركوا أعداءهم السافرين فنجوا بأنفسهم من مصايدهم المنصوبة لهم فكيف لهم أن ينجوا من شبكة بلون الأرض. ويكاد ينطبق على بعضهم ما قاله الشاعر الهندي ومعناه بالعربية: «إن البيت احترق بمصباحه».

بيد أن العالم الإسلامي لا يعوزه رجال نذروا أنفسهم لمقاومة هذه الحركة وكشف عوراتها واستبانة المنافذ التي تنفذ منها إلى عقول الشباب . دورهم في

ذلك دور الذين خلوا من قبلهم من العلماء المسلمين المخلصين في امتداد التاريخ الإسلامي الذين تصدوا لكل حركة مشبوهة رفعت رأسها في المجتمع الإسلامي فحطموها شر تحطيم . ومن هذه الجماعة المؤمنة التي تقوم في العصر الحاضر بدور فعال في مقاومة الدسائس على الإسلام ونظمه ، وردّ اعتباره في قلوب الشباب ، واستجلاء نوره الوضّاء الأستاذ أبو الأعلى المودودي في باكستان الذي لم يفتر قلمه عن فضح محاولات التشويه والدس ، وشرح مفاهيم الإسلام بقناعة المؤمن وأسلوب الحكيم وحجة الفيلسوف . وإنتاجه الغزير في هذا المضمار يملأ المكتبات ويشف صدور المؤمنين ويزيدهم إيماناً بالله وتمسكاً بدينه وتضحية في سبيله بكل غال ورخيص . أمد الله في عمره .

والكتاب الذي بين يدي القارىء الكريم يتضمن طائفة من المقالات والردود التي سجّلها الأستاذ المودودي في أوقات مختلفة لنفس الغرض الذي أشرنا إليه آنفاً. وقد نشرت هذه المقالات والردود في أوانها في مجلة (ترجمان القرآن) الشهرية . ونحن اخترناها من بين مجموعة كبيرة من المقالات والردود التي يتضمنها كتابه (تفهيمات) بأجزائه الثلاثة وكتابه (رسائل ومسائل) بأجزائه الأربعة وجمعناها في كتاب سميناه (الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة). وكما يتضح للقارىء الكريم أن كل مقالة من هذه المقالات ، وكل كلمة من هذه الكلمات مستقلة بنفسها ، وتبحث في موضوع بعينه ولا سيما المقالات التي يحتوي عليها الباب الأول، فهي تتناول مسائل متنوعة وتعالجها بشرح مسهب وتحليل واف ولكن الأمر الذي اشتركت فيه ، هو أنها جميعاً تنصبّ على تساؤلات ، أثارتها العقلية العصرية حول نظرة الإسلام الى الكون والحياة وعن توجيهاته ونظمه في مختلف شؤون البشر ؛ والرد على هذه التساؤلات بصورة تميز الحق من الباطل والصحيح من السقيم .

وسنتبع هـذا الكتاب مجموعات أُخرى من هذه السلسلة تستوعب ما دبجـه يراع الأستاذ المودودي في هذا المضمار من بحوث ودراسات يتضمنها (تفهيمات) و (رسائل ومسائل) والله هو الموفق .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تحريراً في ٧ / ١ / ١٣٩١ هـ
الموافق ٥ / ٣ / ١٩٧١ م

خليل أحمد الحامدي
مدير دار العروبة للدعوة الإسلامية
لاهور — باكستان

البَابُ الأول

الاسلام دين العلم والعقل

إن كل ما قد اخـترع الإنسان حتى الآن — معتمداً على بحثه وتنقيبه — من الأديان ومذاهب الحياة وطرقها ، يجوز أن نقسمها جميعـاً قسمين : قسم لتلك الأديان التي ما تولدت إلا من تصورات خيالية لا علاقـة لها بجو المجتمع الإنساني العام ، فهي لا تـُعْجِبُ إلا النوازع المولعـــة بالغرائب والنوادر . وقسم لتلك المذاهب والطرق التي مـا انبثقت إلا من أهواء النفس وشهواتها العارمة ، فهي لا تـُعْجِب إلا حواس الإنسان وعواطفه . ونحن لا نشك في أن جميع هذه الأديان والمذاهب والطرق قد استخدم الإنسان في اختراعهـا القدر الكافي من العقل والكفاءة الفكرية والعلمية ، ولكن من الحق في الوقت ذاته القول بأن ليس العقل بباعثها ولا هي تخاطب العقل، ولا تقصد الحصول على النتائج العقلية ؛ كأن ليس العقل والكفاءة الفكرية والعلميـــة عندها إلا أداة من الأدوات لاستخدامها في سبيل الحصول على الأغراض الدنيئة والمطالب السفلى . ويغمض النوع الأول منها نظره عن العالم المادي ويتوجه بتمامه إلى العالم الباطني ولا يستعين بقوى العـــلم والعقل إلا لاكتشاف أسباب ووسائل تحرر قوى النفس الباطنة وتمكنها من نيل المكاشفات واللذات الروحية والأمور الخارقة للعادة . ويغمض النوع الثاني — على العكس منـه — نظره عن العالم الباطني ويتوجه بكل همـــه وعنايته إلى العالم المادى البحت ، ولا يستعين بمواهب العلم والعقل إلا لاكتشاف طرق ومناهج توصله الى الاستمتاع بأكبر

قسط من الأسباب والوسائل المـادية وأوفر قدر من الرفاهة والترف والمتعة لجسد الإنسان واللذات لحواسه . وجمـــلة القول أن لا شك أن العلم والعقل خادمان لجميع هذه الأديان والطرق ، ولكنها في حد ذاتهـا لا تقوم إلا على الجهل والسفاهة .

وإزاء تلك الأديان والطرق، هناك دين أرسله الله تعالى إلى عباده بواسطة أنبيائه ورسله . فهو الدين الوحيد الذي ظهر على أساس العلم، ويخاطب العقل في صميمه، ويهدف الى إخراج الإنسان من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ليعرف مكانته الحقيقية في الكون ، ويدرك الجانب الحقيقي لعلاقتـه بالموجودات ، ويستعين — على هدى من العلم والبصيرة — بكل ما له من الطاقات الظاهرة والكامنة والوسائل المادية والروحية لبلوغ الغاية الحقيقية لحياته ، وهي القيام بالخدمة التي أوجبها الله عليه حينما جعله خليفته في الدنيا ، وابتغاء مرضاة الله في الآخرة كنتيجة محتومة للقيام بهذه الخدمة على أتم وجه .

لا يعطل هذا الدين قوة من قوى الإنسان ، بل يرشده لصرفها إلى طريق مستقيم ، ولا يكبت شهوة من شهواته ، بل يضع لها حداً مشروعاً معقولاً، ولا يحول دون تحقيق أفكاره في الفضاء الأعلى ، بل يصف لتحليقهـا أحسن فضاء وأقوم جهـــة ، ولا يعوق قواه العلمية عن اكتشاف الوسائل المادية والاستمتاع بها، بل يوجه هذا الاكتشاف والاستمتاع إلى الأغراض الصحيحة النزيهة . فكأنه بكل هذا يشغل كل إنسان فيما فطر عليه من الكفاءة، سواء أكان بطبعه ميالاً إلى المادية أم الى الروحية، ويريد أن يحليه من العلم والتعقل بمـا يعينه على أن يتجنب طريق الإفراط والتفريط ويسلك طريق الاعتدال والقصد ، ويعرف واجباته في الدنيا كإنسان، ويقوم بها على أحسن الوجوه، ويشعر بما عليه من الحقوق لله وللخلق ولنفسه ويؤديها خير الأداء، ولا يغرق في الجوانب الروحية لحد أن يتخذ المكاشفات الروحيـة واللذات الباطنة هي المحور لمساعيه وجهوده ، ولا ينصرف إلى المادية حيث يجعل كل همه وجهده

وكفاحه مقصوراً على اللذات الحسية والشهوات النفسية والسعادات المادية .

يقوم هذا الدين على العلم والعقل قبل كل شيء وبعده، فلا يمكن أن يتبع اتباعاً صحيحاً إلا بالعلم والعقل . فمن كان لا يعرف روح هـذا الدين ، ولا يدرك حكمه وأسراره ولا يفهم مبادئه ولا يتأمل في توجيهاته، من المستحيل له قطعاً أن يسلك بالاستقامة ذلك الطريق الذي يرشد إليه هذا الدين ويدعو إليه الناس ، ولا قيمة لعقيدته فيه مـا لم تتجاوز إقراره باللسان إلى سويداء قلبه وتستولي على فكره وشعوره ، ولا وزن لعمله بأحكامه ما لم يتشبع بروح المعرفة والبصيرة ، ولا عبرة باتباعه لقانونه ما لم تسيطر روحه على ذهنه مع سيطرته على جوارحه . وهو إذا كان لا يؤمن بصدق هـذا الدين إلا على التقليد الأعمى ولا يتبعه إلا على غير شعور منه ، فما هذا الإيمان والاتباع إلا كريشة في مهب الرياح، فهي تعبث بها على هواها . لا يمكن أن يكون إيمان مثل هذا الجاهل واتباع مثل هذا الأعمى على شيء من الصمود والصلابة لأنه في استطاعة كل من أراد إضلاله أن يضله عن الصراط السوي، ويستطيع كل طريق خلاب أن يجذبه إليه ، ويستطيع كل وهم خيالي ونظرية ملفقة أن تصدع بناء إيمانه وتهز أركان عقيدته. فهو إن كان من المحافظين يصر إصراراً شديداً على كل ضلالة يرثها عن آبائه ، وإن كان ممن يولعون بالتطور والأخذ بكل جديد ، يتخذ إلهـه هواه ويتيه في كل طريق يزينه في عينه شيطان نفسه ، وإن كان ضعيف الطبع لين العود، لا يلبث أن يستجيب لكل ناعق ويمشي وراء كل من يراه يقطع مدارج الكمال بأي وجه من الوجوه على طريق الحياة ، وإن كان على كفاءة تمكنه أن يشق طريقه باجتهاده، فإنه يعول على الظن والمجازفة عند كل مفترق للطرق في رحـلة الحياة بدل أن يستعين بالعلم والعقل لعدم معرفته بحقيقة الدين ولجهـله بأصول القانون الرباني ولا بد في النهاية أن ينحرف عن الصراط المستقيم .

وجملة القول أن هذا الدين لا يمكن لأحد أن يتبعه ويبقى ثابتاً مستقيماً في

اتباعه إلا بقدر ما يكون له من العلم والبصيرة والنظر والفكر ، لأنه بقدر ما ينال الكمال في هذه الجوانب ينال كمال درجاته عند الله .

أنظر نظرة في تاريخ هـذا الدين ، تتجلى لك حقيقة مـا قلنا إلى الآن . فالله تعالى مـا أرسل نبيّاً الى عباده وآتاه كتابه وشريعته ، إلا وآتاه معهما شيئاً سماه (الحكمة) ليعلم عبـاده الكتاب ويجعلهم يتبعونـه على بصيرة من الأمر . قال تباركت أسماؤه : « فقـد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة » وقال : « ويعلمه الكتاب والحكمة » ، وقال : « وآتيناه الحكمة » وقال : « قد جئتكم بالحكمة ». فما هذه الحكمة يا ترى؟ إنها نور العلم والبصيرة وملكة التدبر والتأمل في الكتاب والفقه في الدين ومعرفـة أصوله وأسراره . فكلما جاء من الله نبي علـّم أتباعه هذه الحكمة مع تعليمهم الكتاب . وبهـا ظلوا قائمـين على الصراط المستقيم . ثم جاء عليهم عصر من الجهل والتقليد الأعمى غابت فيـه الحكمة وبقي الكتاب ، فظلوا إلى مـدة يسلكون الطريق الذي تركهم عليه أسلافهم ، وما معهم إلا الكتاب وحده ، فنشأت فيهم القابلية للضلالات لأنه مـا كان بقي عندهم ذلك الجوهر اللامع (أي الحكمة) الذي به يفهمون الكتاب وبه يميزون الضلالة من الحق والهداية من الغواية . فبذلك أخـذت أقدامهم تنحرف شيئاً فشيئاً عـن الصراط المستقيم ، فاتبع بعضهم أهواء أنفسهم ، واتبع بعضهم الظن والجزاف ، واحتذى بعضهم آثار الأمم الضالة المضلة ، واتخذ بعضهم أئمـة السوء والضلال أرباباً من دون الله ، حتى انقرض الكتاب مع الحكمة وتشوه وجه الدين الذي جاءت به الأنبياء والرسل وأصبح مجموعـة تضم الخزعبلات والأوهام والخرافات والضلالات في التفكير والسلوك .

وما السبب في تشوه وجه الدين هكذا مرة بعد مرة ، وضياع الكتب السماوية ووقوع التحريف فيها ، وتطرق الضلالة بعد الهداية الى الأمم إلا أن ليس الشيء الحقيقي في دين الله تلاوة ألفاظ الكتاب وممارسة الشعائر والمراسيم

التعبدية في الظاهر فقط ، بل إنما يتوقف أمره كله على الفهم الصحيح والعلم السديد لكتابه . فإذا مـا بقيت في الناس الحكمة ظـلوا يتدربون في الآيات الإلهية ، ويسلكون على وجه من البصيرة ذلك الصراط المستقيم الذي أرشدهم إليه الأنبياء ، وما استطاع أحد أن يضلهم عنه ، ولكن لمـا أعوزتهم الحكمة نشأت فيهم القابلية للأمراض ، فظهرت الأمراض في داخلهم وأغارت عليهم جراثيمها الوبائية مـن خارجهم ، حتى تفرقت بهم آلاف مؤلفـة من سبل الضلالة بعد أن أضاعوا كتاب الله وأهملوا قانونه .

وبعد فترة من الرسل جاء محمد ﷺ بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يخاف عليه المسخ والتحريف ، لأن الله تعالى قد جعل على نفسه حفظه وإبقاءه في صورته الصحيحة مهما حاول الإنسان محوه ومسخه وتحريفه ، ولكن ليس مدار الانتفـاع من هذا الكتاب والبقاء على الصراط المستقيم واجتناب الضلالات في العقيدة والعمل إلا على نفس ذلك الشيء الذي أُقيم عليه بناء الدين منذ أول يومه أي العلم والعقل . ولا ريب أن كتاب الله وسنَّة رسوله خير هاد للانسان في كل زمان وفي كل حـال ، ولكن لمن ؟ للذين عندهم العلم والعقل ، ويفهمون هداية الله ورسوله، ويتدبرونهاويستنيرون بنورها ، ويسترشدونها في كل ناحية من نواحي الحياة . أمـا الذين فقدوا نعمة التفقه ، وليسوا مسلمين إلا لأن آباءهم كانوا مسلمين ، فلا استقامة لهم في الدين أصلاً . وهم دائماً معرضون لخطر الضلالة . ولا يأمنون أبداً أن تتفجر الضلالة من داخلهم أو تشن عليهم غارتهـا من خارجهم ، وكاد أن ينحرف بهم عن الصراط المستقيم ما فيهم من الجهل والعمى ، أو يتبعوا كالأعمى ضلالة من الضلالات الشائعة حولهم في العالم ، لأنه ليس عندهم ذلـك الشيء الذي يضمن لهم السير بكل استقامة على صراط الدين المستقيم . والقرآن لا يجعل السبب الحقيقي لضلال الإنسان وتنكبه عن طريق الله إلا شيئاً واحداً ، هو غفلته عن آيات الله . فها هوذا ينبه الإنسان على ذلك مرة بعد مرة ويشدد

عليه النكير بقوله:« إن شرّ الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون»[١].

وبقوله : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعـام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون »[٢] . وبقوله : « صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون [٣]. وبقوله : « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله . ذلك بأنهم قوم لا يفقهون »[٤]. وبقوله : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها»[٥]، وبقوله: « أفلم يدبروا القول »[٦].

أما نتائج هذه الغفلة وعدم التدبر لآيات الله تبارك وتعـالى ، فتظهر على صورتين مختلفتين كل واحدة منهما من أشنع صور الضلالة وأقذرها : أولاهما: أن يعتمد الإنسان في دينه وإيمانه على غيره بدون فهم ولا بصيرة ويسلس له قياده ، سواء أساقه الى طريق النجاة أم إلى طريق الهلاك . وفي ذلك يقول جلت حكمته : « وإذا قيل لهم تعالوا إلى مـــا أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون[٧] » ويقول : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله [٨] » فحرموا عليهم الحـــلال وأحلوا الحرام فاتبعوهم . وقال : « يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا ربنـــا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا[٩] » .

---

(١) الأنفال : ٢٢ .
(٢) الأعراف : ١٧٩ .
(٣) التوبـــة : ١٢٧ .
(٤) الحشر : ١٣ .
(٥) محمـــد : ٢٤ .
(٦) المؤمنون : ٦٨ .
(٧) المائدة : ١٠٤
(٨) التوبة : ٣١
(٩) الأحزاب: ٦٦ – ٦٧

والصورة الأخرى لضلالة الإنسان أن يعرض عمـــا أنزل الله من الهداية ويعتمد على رأيه ويتبع هواه . ففي هـــذه الصورة لا يحصل للإنسان علم اليقين ــ الذي هو وسيلة ضرورية لسلوك الطريق المستقيم ــ بـــل يحصل له الظن والتخمين ، ثم إن أكبر خطر له فيها ان شهوات الإنسان النفسية تتغلب على عقله فتعدل به عن الخط المستقيم إلى خطوط الإفراط والتفريط . ومـا مثل الإنسان عندما يسلك هـذه السبيل إلا كمثل من يمشي في الظلام الحالك يتقـدم خطوة أو خطوتين عندما يضاء له برق العلم الصحيح والعقل السليم صدفة (كلما أضاء لهم مشوا فيـه) وإلا فيقوم حائراً (وإذا أظلم عليهم قاموا) أو يتقدم فيتردى في هوة سحيقة أو في شبكة ذات شوك . وفي ذلك يقول عز من قائل : « ومـا يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً [1] » . ويقول : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه .. أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون . إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً [2] » . ويقول : « ومن أضل ممن اتبع هواه بغـير هدى من الله [3] » . ويقول : « ولا تطع من أغفلنا قلبـه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً [4] » . ويقول : « ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون [5] » .

هـذه هي عواقب الغفلة عن الآيات الإلهية والإعراض عن التدبّر والتفقه فيهـا . فالذين يتلون الكتاب ولكن لا يفهمون آياته ولا تحفزهم نفوسهم على أن يجيلوا النظر في تعاليمه ، ولا يبذلون جهداً في معرفة أحكامه، كما يؤمنون بالرسول ولكن لا بصر لهم في هدايته وسنّته ، ويعتقدون حقّانية الإسلام

---

(١) يونس : ٣٦
(٢) الفرقان : ٣٢ ــ ٤٤
(٣) القصص : ٥٠
(٤) الكهف : ٢٨
(٥) الجاثية : ١٨

ولكن يجهلون مبادئه وروحه ، فهؤلاء جميعاً لا يأمنون عند أي خطوة من خطواتهم أن يبتلوا بإحدى هاتين الصورتين من الضلال. ولأجل ذلك أمر الله ورسوله المسلمين التفقه في الدين وفهم هدايته وأحكامه بتأكيد بالغ فقال تعالى: « فلولا نفر من كل فرقــة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » وقال : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياتــه وليتذكر أولوا الألباب » وقال: « قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » وقال: « لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياتــه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » وقال: «من يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً». وقد وردت في هذا الباب أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا لا خير في عبادة ليس فيهــا تفقه ولا علم ليس فيه تفهم ولا قراءة ليس فيها تدبر» وفي حديث ثان أنه ﷺ قال : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وفي حديث ثالث قال ﷺ : « أفضل الناس أفضلهم عملاً إذا فقهوا دينهم » .

إن أكبر نكبة أُصيب بها المسلمون اليوم هي أن ليس فيهم التفقه في الدين والتدبر في الكتاب والسنة ، وهذا هو الذي قد زعزع أركان عقائدهم وجرّد أعمالهم عن الروح وشتت شملهم وخيب مساعيهم ودفع حياتهم في الفوضى . لا ريب أن فيهم عدداً كبيراً يعشقون الإسلام ، ولكن الذين يستطيعون فهمه منهم هم نزر يسير ، ولا قــلة فيهم لمن يفتدون القرآن ومحمداً ﷺ بمهجهم وأرواحهم ، ولكن الذين يعرفون ما جاء به القرآن ومحمد ﷺ من الشريعة لا يتجاوزون عدد الأنامل . ومن نتائج هذا الجهل والفوضى أن الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنفسهم مسلمين ، يوجد فيهم أشنع مــا يكون من أنواع الأوهام وعقائد الشرك ، بل هم يعتنقون مبادىء ونظماً تدعو صراحة إلى الإلحاد والدهرية والكفر بالله ولا يشعرون بأن الإسلام الذي يدّعون اتباعه لا يتلاءم أبداً مع هذه الأفكار ، وأن بينه وبينها ما بين السماء والأرض .

والذي يبكي العين ويدمي القلب أكثر من ذلك ، هو ما عليه حالتهم الخلقية والعملية ، فقد تدهورت أخلاقهم ، وراج فيهم أبشع ما يكون من العادات والتقاليد من أعمال الوثنية إلى أقذر مظاهر الحضارة الغربية. ولا تكاد تشعر طائفة منهم — إلا من رحمهم الله — بمدى انحرافها عن مبادىء ذلك القانون الذي تدعي الإيمان به . فتزدهر فيهم كل فترة خاطئة وكل طريقة زائفة من أين كان مـأتاها ، ويظنون أن الإسلام يتسعها ويتزعمهم بكل سهولة كل منحرف مضلل يسلك مسلكاً يبهر الأنظار . وهم يظنون أن اتباعهم له لا يخالف اتباعهم لمحمد ﷺ . وهم يجمعون بين الإسلام وبين ما هو معارض له بدون مـا تردد في ذهن واحد وحياة واحدة ، لأن تمييز الإسلام عن غير الإسلام مداره العلم والفهم وهمـا اللذان يفقدونهما . ولعمر الحق إن كل من يعرف الفرق بـين المشرق والمغرب لا يكون من الحمق والبلاهة حيث يتوجه إلى المشرق ثم يقول أنـه متوجه إلى المغرب . لا يمكن أن يصدر مثل هذا الخطأ إلا عن جاهل ، والجهالة هي التي نراها تعمّ المسلمين — إلا جماعة قليلة منهم — في مشارق الأرض ومغاربها، سواء أكانوا من العامة البسطاء أو العلماء المعممين أو المتصوفين ذوي السبحات أو المثقفين في الكليات والجامعات العصرية . تتضارب أفكارهم وتختلف مسالكهم ولكنهم جميعاً يلتقون على الجهـل بحقيقة الإسلام وروحه . فقد صدق الرسول الأمين ﷺ حين قال : « صنفان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمـة : السلطان والعلماء » . ويشهد كل باب من أبواب تاريخ المسلمين صدق قوله ﷺ . ونحن الذين نرى اليوم صدقه أكثر من غيرنا — ولو كان حكامنا وعلماؤنا على التقوى والعلم الصحيح بالدين لما أفضى الأمر بالمسلمين إلى ما هم عليه الآن ، على أن الأمة الإسلامية إذا واكبها الحظ وتيسر لها أمثال هؤلاء القادة الزعماء ، فلا داعي إلى اليأس على تدهور الأوضاع وترديها إلى هذا الحد .

(نقلاً عن مجلة « ترجمان القرآن » في شوال ١٣٥٤ هـ يناير ١٩٣٦ م)

نظرية دروين للنشوء والارتقاء

كتب إلى أحد قراء « ترجمان القرآن » بما يلي :

«إن نظرية دروين للنشوء والارتقاء من الأمور المسلم بها اليوم في الأوساط العلمية ، ولكننا إذا قرأنا القرآن ، وجدنا في غـــير موضع واحد منه ، تصادماً وتناقضاً بين تعاليمه وبين تلك النظرية . فالإنسان — على حسب بيان القرآن — كان إنساناً منذ أول يومه ، خلق بعملية الخلق في يوم معلوم . ثم انتشرت منه السلالة البشرية على وجه الأرض ، ولكن الذي تشهد به العلوم الطبيعية التي ندرسها في كلياتنا ، أن الإنسان إنمـا جاء متطوراً من مرحـلة الحيوانية شيئاً فشيئاً ، ومن المحال أن يحدد في هذا التسلسل الارتقائي نقطة انتهت عليها مرحـلة الحيوانية وابتدأت مرحلة الإنسانية .. نقطة أشار إليها القرآن الحكيم فقال : « فـإذا نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » . وهذا إنما هو مثال واحد على ما يوجد من التناقض بين بيان القرآن ونظرية دروين للارتقاء ، وإلا فهناك في مسألة خلق الإنسان تفاصيل كثيرة يتصادم فيها بيان القرآن مع نظرية دروين. ونظراً لهذه الأمور ، فإن طالباً من طلبة العلوم الطبيعية لا يستطيع أن يحتفظ بإيمانه . فهل لكم أن تحلوا لنا هـذه المشكلة الشائكة ؟

إن هذا السؤال الذي تقدم به القارىء الكريم وأجاد في وضعه وعرضه،

لا نحتاج للجواب عليه إلى استعراض دلائل نظرية دروين وشواهدها ، وإنما الذي يجب التحقيق فيه . هو : هل تصور النشوء والارتقاء الذي تقدم به دروين حقيقة ثابتة أو هو مجرد نظرية من النظريات ؟ وأنه إن كان نظرية لا غير ، فهل هي من الأهمية بمكان حتى اذا واجهها المسلم يندفع إلى التفكير: أيؤمن بها أم يبقى مؤمناً بالقرآن الحكيم ؟

وليكن الدارس على علم في مستهل ردنا على هذا السؤال بأن نظرية دروين لا تزال في الستينيات من القرن العشرين نظرية بحتة كما كانت نظرية صرفة في أواسط القرن التاسع عشر ، ولم تتحقق بعد كحقيقة واقعة (Fact) ولا يخفى على أحد الفرق بين النظرية والواقع ، وأن الإنسان لا يحتاج الى إعادة النظر في إيمانه إلا حينما يتصادم إيمانه مع شيء هو حقيقة وأمر واقع لا مجال للريب فيه . وإلا فإن الإيمان الذي لا يصمد أمام الأمور القياسية والنظريات المجردة ، فما هو بإيمان وإنما هو (حسن الظن) يمكن أن يتبدل (بسوء الظن) على أساس مجرد الأوهام والخرافات والإشاعات .

هذا ، وتعال نستعرض الآن مكانة نظرية دروين العلمية ووزنها في ميزان العقل والمنطق . إن أصعب مسألة من مسائل علم الحياة (Biology) قد استبهمت على علماء الطبيعة ، ألا وهي : ما هو مبدأ الحياة ؟ أما القرآن فيقول مجيباً عن هذا السؤال: إن مبدأ الحياة هو أمر الرب سبحانه وتعالى ، وإن الرب هو الذي ينشيء آثار الحياة في مادة ميتة. وأما الذين ظلت العلوم التجريبية الحاضرة تنمو وتتقدم على أيديهم في الغرب منذ عهد البعث ، فما زالوا يحاولون التملص من إقرار وإحساس بوجود ما فوق الفطرة (Super natunal) وسلطانه وتصرفاته ، وظلوا يتمنون منذ بدء أمرهم لو عثروا في داخل معمل الفطرة أي الكون نفسه على قوة توجهه . فهذا الخطأ الأساسي قد خلق لهم مسائل صعبة متعددة ما وجدوا لأنفسهم مناصاً لحلها إلا باللجوء إلى القياس والخرص والرجم بالغيب . فبالقياس والرجم بالغيب أرادوا أن يحلوا عقدة

بدء الحيـاة ، وبالقياس والرجم بالغيب أرادوا أن يجدوا إجابة للتساؤل عن سبب التنوع في الحيـاة ، وسبب التفاضل بين مختلف الأنواع ؟ فدروين من أولئك الذين حاولوا بحث هذه المسائل بهذا الأسلوب ، ولكنه ما قال أبداً انه قد أدرك الحقيقة ، كما أن علماء العلوم الطبيعية القائلين بنظريته هم أيضاً لا يعتبرون قياسهم حقيقة وفكرتهم واقعاً . غير أن الذين ما مستهم إلا نفحة يسيرة من نظرية دروين سمعوا بهـا من مكان بعيد ، نراهم يلهجون بذكرها ويبدءون القول فيها ويعيدونه كأن الحقيقة تكشفت لهم جلية وتماثلت بين أيديهم لامعة .

ولو أن دروين انطلق في بحثـه من تلك النقطة التي يبيّنها القرآن للبحث في هذه المسألة ، لما انتهى إلا إلى هذا التنوع والتفاضل في مختلف أنواع الحياة وأجناسها وصورها، الذي يلمح في كل شيء في هذا الكون من الجزئية وحيدة الخلية (Unicellular Molecule) إلى الإنسان المتكامل بترتيب لا نظير له ، إنما هو نتيجة لتخطيط حكيم مدبر، وأن تخطيط هذا الحكيم المدبر هو الذي — بعد أن هيأ لمختلف أنواع الحياة بيئة تناسبها وظروفاً توافقها — مـا زال يخرجها إلى حيز الوجود بمزاياها المخصوصة المتنوعة بالتدريج . كما أنـه بجانب ذلك يمحو الأنواع التي مـا بقيت إليها حاجة في مخططه . إلا أن هؤلاء — كما قلنا آنفاً — يريدون أن يتملصوا بأي وجه ممكن من الاعتراف بوجود واضع هذا التخطيط ، ولا يحبون أن يروا في معمله آثار عمله ، فنجد أنهم يفسرون ما يشاهدونه بطريق يثبت لهم أن هذا المعمل يسير بنفسه ويتطور بنفسه ، وهكذا فسر دروين التنوع والتفاضل في أنواع الحيـاة بتلك النظرية للتطور والارتقاء التي تعرف اليوم باسمه ، ولأجل هذا فإن أوربا التي كانت إلى ذلك الحين إنما تسيّر إلحادها بدون أرجل، هرولت إلى تلقي هذه الأرجل الخشبية بكل قبول ، ووضعتها تحت كل شعبة من علومها الطبيعية ، بل وفي فلسفتها وأخلاقها وعلومها للعمران ، مع أنه كان ولا يزال في هذا التفسير من الوجهة